التحدي وبمواجهته، خصوصاً بين العامين ١٩٠٩ و١٩١٤. هكذا تطوّر الشعور الوطني الفلسطيني من خلال مواجهة خطر صهيوني خارجي ميّز البقعة الجغرافية الفلسطينية، تمييزاً واضحاً، عمّا حولها من المناطق. وعلى الرغم من ان قلّة من خارج فلسطين كانت، فعلاً، تعتبر هذه البقعة الجغرافية جزءاً لا يتجزأ من هويتها الاولى، لاعتبارات قومية، أو دينية، الاّ انها بقيت، على وجه العموم، في مستوى التضامن الخارجي مع غير قريب، ولكنه منفصل، هو الفلسطيني (ص ٨٦ ـ ٨٧).

في هذا السياق، محّص المؤلف، في الفصل الرابع، مشاركة الفلسطينيين في مختلف الحركات السياسية التي انطلقت في العقود الاخيرة من المرحلة العثمانية؛ فشكّلت مجموعة محلية نادت باللامركزية، اشترك فيها حسن حمّاد (نابلس)، وسالم احمد عبدالهادي (جنين)، ومحمد الشنطي (قلقيلية)، وحافظ السعيد (يافا) (ص ٩٩). واشتركت جماعة نابلسية معروفة في جمعية الفتاة، التي أنشئت في باريس العام ١٩٠٩، ومنها عوني عبدالهادي ورفيق التميمي وابراهيم هاشم (ص ٩٣). لكن النخبة الفلسطينية التقليدية، كما رأى المؤلف، كانت، في الاجمال، كمثيلها في دمشق وحلب وبغداد، ما زالت مقتنعة بالرابط العثماني، وكانت تميل، بالتالي، الى تطويره، بدلاً من البحث المضني عن كسره، لا سيما وان الخطر الصهيوني بدأ يتضح، ومعه الحاجة الى دعم الباب العالي في مواجهته، انْ لم يكن القضاء عليه (ص ١٠٣ ـ ١٠٦).

لقد طرح الخطر الصهيوني على الفلسطينيين خيارين، سعى المؤلف، في الفصل الخامس، الى شرحهما باسهاب. اولهما، خيار الالتحاق بحكومة دمشق العربية؛ وثانيهما، السعي نحو تأكيد هوية وطنية فلسطينية باتت لها شرعية تاريخية، كرد فعل على المشروع الصهيوني. ازاء هذين الخيارين، انقسم الفلسطينيون، لفترة قصيرة جداً؛ فمنهم من تحمّس للامير فيصل بن الحسين، وانضمّ اليه، من أمثال محمد عزة دروزة ورفيق التميمي (ص ١٢٧)؛ ومنهم من كان متلكئاً في الانضمام الى فيصل من دون ان يحمل مشروعاً بديلاً. لكن معظم الوجهاء الفلسطينيين، في تلك الحقبة، كان ميّالاً، في الاجمال، الى «الخيار السوري»، خصوصاً وان فيصلاً كان ممثل سكان «سوريا الطبيعية» الوحيد في مؤتمر السلام، المنعقد في باريس، مطلع العام ١٩١٩ (ص ١٢٣ ـ ١٢٥).

غير ان التقسيم الاستعماري وواقع الخطر الصهيوني كانا أشد تأثيراً ووطأة من مشاريع الوحدة السورية، لا سيما بعد سقوط حكومة فيصل العربية في دمشق، بعد عمر قصيرة للغاية. وفي هذا السياق، رصد المؤلف، في الفصل السادس، بعمق يحسد عليه، تطوّر الكيانية الفلسطينية، خصوصاً بعد شعور الفلسطينيين، في مواجهة الحركة الصهيونية وتراجع المشروع العروبي، بنوع من الوحدة الوطنية. هكذا، تبلورت فكرة الوطنية الفلسطينية، بأجلى صورها، في مؤتمر عقد في حيفا، في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٢٠، حيث قبلت القيادات الفلسطينية، بصورة اجماعية، فكرة الكيانية الفلسطينية، وانتفت من البيان الختامي أية اشارة الى فلسطين كـ «جنوب سوريا». الاّ ان المؤلف لم ينبّهنا الى حقيقة ان «التأرجح» بين هوية وطنية فلسطينية مميّزة، وهوية سورية جامعة، كان دليلاً على «ذبذبة» الولاء لجغرافيا واضحة. وهذا «التأرجح» قاد الى خلافات حادة في أوساط النخبة الفلسطينية، وأخّر، بلا شك، مسار تفكيرها بنوع السلطة السياسية الموحّدة، شبه ـ الدولة، لمواجهة الانتداب البريطاني والخطر الصهيوني في آن.

وفيما كانت الكيانية الفلسطينية تقوى وتتعضد تدريجياً بفعل مشاريع الانتداب البريطاني والتحدّي الصهيوني، من دون ان تجد هذه الكيانية بنية تحتضنها، برزت التنظيمات السياسية، باعتبارها «حاضنة» مؤقتة لها. واستطرد المؤلف، في الفصل السابع، في تبيان هذه التنظيمات؛ وأول ما لفت نظرنا اليه ولادة الجمعيات الاسلامية ـ المسيحية في يافا، في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨، التي حدّدت اسباب قيامها، فيما بعد، «بأنها تسعى الى الاستقلال، والاتحاد العربي، والدفاع عن حقوق العرب وأماكنهم المقدسة، من الوجهات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وبذل الجهود لسلامة العرب، بطرق سلمية مشروعة، والعمل على انهاض العرب من وجهة معنوية ومادية» (ص ١٥٨ ـ ١٦٣). وفي موازاتها، تأسست، في القدس، منظمتان، هما النادي العربي والمنتدى الادبي، وكان معظم الاعضاء من الشبان، من أمثال فخري النشاشيبي، وحسن صدقي